اسم الكتاب : ساحر أو مجنون

تـــــأليف : أيمن العتوم

القيـــــــاس : ١٤,٥ x ٢٠,٥ سم

عدد الصفحات : ٥٧٣ صفحة

الترقيم الدولي :

الطبـعة الأولى

١٤٤٤هـ - ٢٠٢٣ م

وكيل التوزيع في جميع أنحاء العالم

دار
الرموز العربية

دار الرمــوز العربيــة للنــشر والتوزيــع

عنوان المكتبة : تركيا - بورصة - تشارشمبا - جانب مجمع الحاج

+90 534 918 32 93

rumuzegitim16@gmail.com

مؤسسة ومكتبة الرموز العربية

أيمن العتوم

ساحِرٌ أو مَجْنُون

حكاية الشّاعر الثّائر أحمد بن الحُسين (المُتنبّي)

المخطوطة الثّالثة

قبل البدء:

قصّة المخطوطة الثّالثة (ساحرٌ أو مجنون)

زرتُ بغداد في معرض الكتاب عام ٢٠١٩م، كان واجِبًا آنئذٍ أنْ أزور المتنبّي، فعلتُ ذلك ذات مساءٍ من أيّام شباط الباردة، وقفتُ مليًّا عند تمثاله، وأنشدتُ بين يدَيه شوارِدَه السّائرات، وكان أكثرَ إنشادي يتبسّم تبسُّمَ الرّضا والشّجا... ثُمّ ودّعتُه وقفلتُ راجِعًا. في طريق عودتي عثرتُ في أحدِ الأزقّة على كُتَبِيّ يُشبه دَلاّل الكتب في العصر العبّاسي من حيثُ الوظيفة، إذ هو جامعُ مخطوطاتٍ ومُنتقِي أخبارٍ من بطون الكتب، وبينما أُقلّب المخطوطات الّتي في مكتبته وهو يُقلّب الطّرف فِيّ مُشفِقًا على هذه الكنوز ومُستعجِلاً ذهابي، وجدتُ عنده نسخة أخرى من مخطوطة (أحمد بن الحُسين) الّتي عندي، ففرحتُ فرحًا شديدًا، ولمّا قابلتُها بنُسختِها الّتي في هاتفي، فإذا في نسخته بعضُ الزّيادات، فراودتُه عنها ليبيعها لي، فلم يرضَ، فَزِدْتُ له في الثّمن فأبى، فاستأذنتُهُ أنْ أجلسَ في مكتبته للمقابلة بين النّسختَين، وإضافة الزّيادة من نُسخته إلى نُسختي، فرضي وهو عَلَيّ ضانّ، فمكثتُ أسبوعًا على هذه الحال حتّى تَمّ لي ما أراد...

ما أودّ قوله إنّ بعضَ الزّيادات ربّما أُضِيفتْ متأخّرةً كانت من صنع المتنبّي نفسه أو من صُنعِ راويته عليّ بن حمزة على الأرجح، ولا أحسبُ أنّ رواتَه في مصر أو في الشّام في المرحلة الأولى أضافوا شيئًا، ذلك أنّ قراءة الدّيوان على المتنبّي كانتْ بعدَ خروجه من مصر، وكثرة الأسئلة عليه وتدوينها كانتْ في مرحلة بلاد فارس إلى مقتله.. ولعلّ بعض هذه الزّيادات كان من اصطِناع الهواة الّذين أعجبتْهم قِصّة هذا الشّاعر، أو ربّما سَبَبُ ذلك التّصحيف، أو اختِلاف النُّسّاخ... وعلى أيّة حالٍ، فإنّني خرجتُ بالنّسخة الأكمل الّتي عملتُ عليها كما عملتُ على أُختَيها سنواتٍ طِوالاً، لأقدّم لكم هذه الرّواية على هذا الوجه الّذي تقرؤونه في هذه الصّفحات، صحيحٌ أنّها روايتي، ولكنّها حِكايته؛ حكاية الشّاعر الثّائر (أحمد بن الحسين).

المرحلة الأولى

في حَمْدِ أَحْمَدِهِ

٣٠٣ - ٣١٢ هـ

أَبـلى الهَـوى أَسَـفًا يَـومَ النَّـوَى بَـدَني
وَفَـرَّقَ الهَجـرُ بَـينَ الجَفْـنِ وَالوَسَـنِ
رُوحٌ تَـرَدَّدُ فِي مِثْـلِ الخِـلالِ إِذا
أَطـارَتِ الرِّيْـحُ عَنـهُ الثَّـوبَ لَمْ يَبِـنِ
كَفَـى بِجِسْـمِي نُحُـولاً أَنَّنـي رَجُـلٌ
لَـولا مُخاطَبَتـي إِيّـاكَ لَم تَـرَني

(١)

ولادة

كانَ وَقْعُ أقدامه على الأرض، يُشبِه دمدمة الأرض بعدَ هُطُول المطر، الرّيح تلعبُ بأوراق الشّجر، والأرض مُبتلّة بالنّدى، والضّباب يلفّ المكان، والسّرداب الّذي هبطَ إليه الجِنّيّ كان مُعتِمًا تمامًا، لكنّ عينَيه كانتا جمرتَين ترَيان في أشدّ الأماكن حُلكةً. كان الجنّيّ ذا لحيةٍ بيضاء طويلة، يلبسُ عباءةَ مَلِك، وكان وجهه صافِيًا كأنّه قِطعة بلّور، هبطَ على مَهَل، لم يكنْ يتقدّمه أحدٌ، بينما كان يمشي وراءه آلافٌ من الجنّ بأحجامٍ مختلفةٍ كأنّهم يعاسيبُ النّحل، كانوا يسبحون على سقوف السّراديب، ويسيلون على جوانبها، وهم يُغمغِمون بكلماتٍ غير مفهومة، بينما كان هو صامِتًا، يبتسم، ويتقدّم بخُطُواتٍ واثِقةٍ وئيدةٍ إلى الغرفة الّتي ينتهي إليها السّرداب، لم يكنْ أحدٌ يعرفُ مَنْ بناه أو مَنْ خَطّ له هذه الالتِواءات، سردابٌ لم يدخلْه بشريٌّ من قبل، وحده هذا القادم إلى العالَم اليوم سيكونُ أوّل بشريّ يُولَد فيه.

وصل (أَنْيان) إلى قرار الغرفة، أفسحَتْ له القابِلاتُ المكان، ووقفْنَ في صمتٍ وهيبةٍ خلفَ السّرير الّذي كانتِ تتمدّدُ عليه الأمّ النّائِمة أو هكذا خُيِّلَ لِمَنْ يراها. كانت الجُدران تُشعّ بِضياءٍ ناعس،

رخيم، ومريح، وعليها تغيم وتبدو صُورٌ لشخوصٍ لا يَعرفُ مِن وجوهها أحدٌ شيئًا. وقفَ (أَنْيان) عندَ رأسِ الطّفل الّذي كان يصرخُ وما زالَ الماءُ يسيلُ على جسدِه الطّريّ، مَسَح على رأسِهِ برِقّة، وهمَسَ في أُذُنِه بكلماتٍ لم يسمعها سِواه فسكت، كانتِ القابِلات وحُشُودٌ تكتظّ بها المساربُ تُلقِي برؤوسِها على صُدروها في صمتٍ مَهِيب، كأنّهم ينتظرون إشارةً منه، مرّتْ لَحَظاتٌ توقّف فيها كلّ شيءٍ عن الحركة، قبلَ أنْ يفوه المَلِك بسؤالٍ يتيم: «والأمّ؟». تقدّمتْ إحدى القابِلات خُطوةً إلى الأمام باتّجاه (أَنْيان) لتهمسَ بأسًى وهي لا تَزال مُطرِقةً: «لقد ماتتْ». ردّ دون أنْ يلفّ جِذعه باتّجاهها: «ادفنوها كما يليق بملكةٍ من مَلِكاتنا». «وهو؟». «سآخذه، إنّه ينتمي إلينا». ضَمّه إلى صدره، وألبسه رِداءً من غَيْم. ومضى به عابِرًا السّراديب إلى السّطح، تنفّس الوليدُ هواء الأرض فعادَتْ إليه الحَرَكة، أرادَ أنْ يصرخ، لكنّه لمّا التقتْ عيناه بعينَي (أَنْيان) أصابه خَدَرٌ فسكت، وفرحٌ غامِضٌ فابتسم. في دوائرَ لا تنتهي، تزدادُ اتّساعًا كلّما ابتعدتْ عن المركز، رفع (أنيان) يده اليُسرى، فهدأ الجمع المُتراكِب، وخمدتْ حركات الوافِدين، كان ذلك إيذانًا بأنّه يريدُ أنْ يقول شيئًا، وعلى كلّ جنّيٍّ فوقَ سطح هذه الأرض أنْ يصمت، ويخفضَ طرفَه، ويجثو على رُكْبتَيه، ويُرهِفَ أُذُنَيه ليسمع. رفع (أنيان) الطّفل بيمينه، وهتف: «سأهبه الخلود، لن يكون مثل غيره، لن يكون فانِيًا، سأهبُه أعمار الجِنّ جميعَهم، وستُهنِّئه البشريّة بالخُلود دون أنْ تدري أو تريد. الخلود انتِزاع». غاظَ ذلك الجنّ، أردف: «سآخذُ من أعماركم له». لم يكنْ لهم رأي، عليهم أنْ يُطيعوا، غيرَ أنّ الحسدَ تحرّك في قلوبهم، كانَ الدّم الجاري في عروقهم يهتفُ: «لماذا؟». «ما الّذي رأيتَ فيه ولم ترَ فينا؟». «أيُّ شيءٍ تميّز به وهو لا يزال في القِماط حتّى تسرق من أعمارَنا

لتعطيه؟». «ما الّذي أعجبكَ فيه وهو لم يجترحْ في الأرضِ حتّى هذه اللّحظة شيئًا لتكون له هذه الحُظوة؟». كانتْ خواطرهم تفضحهم، وكان (أنيان) يسمع ذلك، نظر إليهم جميعًا، فشعّتْ عيناه ولاحظ ذلك أبعدُهم الّذي تضيق به الأرض كملاحظة أقربهم له، ابتسم، وهتف: «ستُدركون ذلك أيّها الحَسَدة، أنتم لا تعرفون أنّ امتداده امتدادٌ لنا، أنتم لا تُدركون أنّنا نأخذُ منه كما نُعطيه، إنّ أعماركم لو بقيتْ لكم لنخرها دود الفناء، أمّا له، فسيكتمل به ما نقصَ منكم... الآن سترون ذلك وتسمعونه».

صرَخَ (أنيان) وهو لا يزال يحتضن الطّفل: «يا سَلَمْيَة». فتبدّلت الأرض غير الأرض، وجاءَ جِنُّ سَلَمْيَة، قُلْ أيّها الخالد، فأنشدَ الوليد ما أُلقِيَ في رُوعه، فأطرقَت الجِنّ الّتي هناك، وجثتْ على رُكبِها، وأقرّتْ له. ثُمّ صرخ (أنيان): «يا نِصّيبين»، فتبدّلتِ الأرض، ونبتَ من بين شقوقها جِنُّها، وتابع: «أَنشِدْهم أيّها السّاحر»، فأنشدَ الطّفل هناك ما كانَ في الغيب، فخرّت الجنّ، وتبيّنتْ أنّ مَلِكها على الحقّ. ثُمّ صرخ (أنيان) ثالثةً: «يا أنطاكيّة»، فتبدّلتِ الأرض، ووفدتْ من البحر كلّ جِنّها، كانَتْ عروق الماء لا تزال تُبلّل أجسادِها، وتُبلِّد شُعورها، قُل: «يا...» توقّف قبلَ أنْ ينطق باسمِه، ثُمّ جاءه صوتٌ من السّماء: «قُلْ يا أحمد». فضحكَ (أنيان) لمن أسعفه من السّماء الّذي كرّر ليُؤكّد: «اسمُه أحمد»، فرفعه (أنيان) هذه المرّة بكلتا يدَيه حتّى مَسّ رأسُه السّماء الأولى: «قُلْ يا أحمد»، فغنّى، فتمايلَ الجمع، قبل أنْ تحينَ التِفاتةٌ من المَلِك إليهم جميعًا فيسجدون ويُقِرّون. ثُمّ طافَ به أصقاع الأرض كلّها، حتّى أنشدَ

شِعرَه في كلّ بقعة، فما منْ شجرٍ، ولا مَدَرٍ، ولا وبر، ولا حضرٍ، ولا ماءٍ ولا يابسٍ إلاّ سرتْ عليه كلماتُه، وانسربتْ فيه حروفُه.

ثُمّ هتفَ (أنيان) مُغضَبًا»: «الآنَ ائتُوني بأبيه». فجيءَ به يسعى، وهو في هلعٍ بينَ جِنِّيَّين يسوقانه مُترفِّقَين به، فلمّا وصل إلى خلاءٍ من الأرض، رأى أسرابًا من الخلق بيضَ الثّياب يُخنُون، ورأى مَلِكًا عظيمًا يتوسّطهم يُهاب، فارتجفتْ أوصالُه، فهربَ إلى الظّنّ بأنّه يحلم حتّى لا يُغشَى عليه، فطمأنه المَلِك: «لا تخفْ، أنتَ أبوه، ولكنّنا أحقُّ به منك، سنُلقِي على أعلمنا وأبلغِنا شبَهَك، وسيكون أباه أمام النّاس، وأمّا أنتَ فإلى غَيابة»، ثُمّ أشار بيده ومسحَ بها جسد الّذي عنِده عِلمٌ من الكتاب فصارَه، أو خَلَبَه، ثُمّ وَجّه إليه القول: «وأمّا أنتَ فإلى الكوفة وإلى حواريها، فإنّ أهلَها أشدَّ ما يكونون عطشًا إلى سِقائِك».

(٢)

مَنْ يكونُ أبي؟!

«إنّكَ كثيرُ الطّواف في الحواري، ولن تستطيع أنْ ترعاه كما أرعاه أنا». «أستطيعُ أنْ أطوفَ بيوتَ الكُوفةِ كُلَّها، وأعُودَ إليه قبل أنْ تغيبَ الشّمس لآخذه بما يجب أنْ يُؤخذَ به العباقرة». «لا، إنّه مُحتاجٌ إلى رعايةٍ من نوعٍ آخَر». «ربّما كَنَفكِ سيمنحه الهُدُوء والطّمأنينة، وأمّا أنا فسأمنحه شيئًا لا يُمكن لأحدٍ أنْ يمنحه إيّاه سِواي». «لا تُجادِلْ كثيرًا». «إنّكِ لا تعرفين شيئًا». «بل أنتَ الّذي لا تعرفُ شيئًا، اليتيمُ يحتاجُ إلى أمّ». «لقد غيّبَها الموت، ولا داعي لأنْ نُثير الأحزان». «أنا أُمّه بعدَ أُمّه». «ذلك لك».

هيّأتْ جدّتي لي سريرًا إليها في بيتٍ بسيطٍ، مُكوّنٍ من غرفتَين، إحداهما كانتْ تضمّنا، والأخرى كانتْ تضمّ كعوبًا من الجلد تحوي نفائسَ من العِلم، وكانتْ تُرقّصني إذا هبطَ المساءُ بأغنيات الثّورة:

يَـا وَارِثَ المَجْـدِ لا تأمَـنْ إِلَى اللَّيْـلِ
واذْخَرْ مِـنَ العَزْمِ ما يَحْمِـي مِنَ الهَوْلِ
لَقَـدْ وَلَدْتُـكَ للجُـلّى فَكُـنْ مَلِـكًا
يَزِيـدُ فِي فَضْلِـهِ عَـنْ سَـابِغِ الفَضْـلِ

لا تَرْكَنَــنَّ إلى ضَعْــفٍ ولا خَــوَرٍ
أو تُشْغَــلَنَّ بِــما يُلهِــي عَــنِ الأصْــلِ
فــإنْ شَرِبْنــا مــن الأحــزانِ أســودَهَا
فَإِنَّهــا سَــوْفَ تَبْــلَى مِثْلَــما تُبــلِي

صحبَتْني جدّتي وأنا ابنُ أربعٍ إلى مدارس الأشراف العلويّين، قالتْ للقَيّم على المدرسة: «تعرفُ أباه، سؤال الأشراف ذُلّ، فلا حاجةَ لأنْ تسألني». «سيكون لكِ ما تريدين، ولكنْ عليكِ أنْ تنسَي أنّه ابنُكِ، إذا وفدَ إلينا فعليه أنْ ينقطع لنا». «أعرف، ولكنّ ذلك لا يمنعني أنْ أحضر معه بعضَ الدّروس حتّى يَشِبّ». تركتْ يدي، فشعرتُ أنّني انتقلتُ إلى عالَمٍ آخَر.

بأقواس أقرب إلى الدّائرة من نِصفها، وأروقة فسيحة، ومداخل مُزخرفة، وحجارةٍ رماديّة كأنّ ذكرى الرّاحلين قد نثرتْ عليها رداءَها، وفي مكانٍ لا يدخلُ إلى ساحته إلاّ مَنْ يُؤذَن له، ذلك النّوع من الغُرَباء الّذين ينفصِلون عن دُنياهم بمجرّد دُخُولهم البَوّابة الأولى. كانت المدرسةُ عالَمي يومئذٍ. بدأَ أستاذُ القرآن بسورة الأحقاف، كنتُ أحفظُ من أوّل ترددٍ خلفَه، طربتُ حينَ وصلَ إلى قوله: «وإذْ صَرَفْنا إليكَ». فشعرتُ أنّني المُخاطَب في هذه الآية، فمارتْ في أعماقِي مشاعرُ غريبةٌ، لم يكنْ لي أنْ أتبيّن كُنهَها إلاّ بعدَ بضعة أعوامٍ من تلك الأيّام، ثُمّ ثَنّى الشّيخُ بسورةِ الجنّ، فلمّا وصلتُ في الحِفظ إلى قوله: «وأنّه لَمّا قَامَ عَبْدُ اللهِ

يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا»، شعرتُ أنّني المَعنيّ بذلك، ثُمّ تصاعدَ الإيقاع، فلمّا صار إلى قوله: «وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا»، شعرتُ أنّني أحصيتُ ما أُريد.

كانتْ جدّتي تأتي إلى المدرسة مساء كلّ خميسٍ، فتأخذني بعدَ أنْ تُعطِيَ شيخَها المواثيق على أنّها ستُعيدنُي مساء السّبت، وما إنْ نخرجْ معًا من بوّابة المدرسة حتّى تطوفَ بي أنحاء الكُوفة، فتقفُ عندَ بيتٍ مُهدَّم: «هنا نشأ أسلافُك»، ثُمّ تمرّ على رَدْم وتَستعبِر: «هنا وقفَ عليّ». فإذا تجاوزتْه إلى ناحيةٍ أخرى، قالتْ: «هنا بعضُ دَمِ الحُسين، ألا تشعر بروحِه؟»، فأُغمِضُ عينَيّ، وأجيب: «أشمّ رائِحة المِسك من التّراب»، فتشدّ على يدَيّ: «هو ذاك». ثُمّ أشعرُ أنّ الأرضَ تُطوَى من تحتِ أقدامنا، فنجدُ أنفسَنا في أرضٍ غير الأرض، وتُشيرُ جدّتي بيمينها: «هنا ثوى مُوسَى، ألا تراه؟!». فأهتفُ: «أسمعُ حفيفَ أجنحةٍ». فتفترّ شِفاهها عن بسمةِ الرّضا: «إنّها الملائكة الّتي الّتي كانتْ في مجلسِ العِلم عنده»، ثُمّ يطيرُ بنا بُراقُ الوقت، فنرى الرّوضة، فتقول: «هنا الحسن، وزين العابِدين، والباقر، وجعفر.. هنا قُبور آبائِك، فلا دُعيتَ ابني إنْ لم تعرفْ لهم الفضل، وتتهَدّى دُرُوبَهم». ثُمّ تُطوَى لنا الأرضُ من جديدٍ، فنرى الملويّة تقف شامِخة، فإذا هي شاهِدةٌ على صعود كلمة الله إلى السّماء، فتهتفُ وقد بانَ على وجهها التّعب، وغَضّنتِ السّنون ما كان مُونِعًا من صفحة وجهها: «هنا دُفِنَ أبوك». وتقفُ كلمة (أبوك) في الفراغ الخفيف الحاجز بيننا، وأصمتُ، وترتسمُ علائم التّعجّبِ على وجهي: «أبي؟». فتردّ بثقة: «نعم، أبوك، لقد هاجَتْ به الفِتن، فأوى إلى

هذه التُّربة». «ولكنْ؟» وأتردّد قليلاً قبل أنْ أنطق: «أليسَ أبي ما زال حَيًّا؟!» وتتجاهل سؤالي قائلة: «لا تنسَ الجذيمة الّتي أنبتَتْك، الجهلُ أعدى أعداء الإنسان». وأتجاهلُ تَجاهُلَها بسؤال آخر: «أليسَ أبي ذلك الّذي يطوفُ أنحاء الكوفة، يحمل الدّلاء على عاتِقَيه؟!». وتبقى صامتة، فأردف: «الرَّوَّاء؟»، وشعرتُ أنّها غضبتْ آنئذٍ، ثُمّ رأيتُها تهبطُ إليّ حتّى إذا صار وجهُها في وجهي، قالتْ بنبرةٍ حادّة: «هذا ليسَ أباك». «فمنْ يكونُ إذًا؟». «لا أعرفُ، إنّه حارِسٌ مِسكينٌ ألصقوه بِكَ حتّى تنسَى». «أنسَى ماذا؟». «تنسَى ثأرَك». «ثأري؟ وهل لي ثأر؟!». «لستَ ابني إنْ لم تأخذْ به». شعرتُ بالخوفِ من جُملتِها الأخيرة، قبل أنْ أبتعدَ خُطوةً إلى الخلف، وأُحِدَّ النَّظرَ في وجهها وأسألَ بتحدٍّ: «فمَن يكون؟». «هذا السَّقّاء؟». «نعم». «بعثَ به مَلِكُ الجنّ إلينا ليحرسك». «يحرسني؟». «نعم». «مِمّ؟». «من الّذين سيسرقون تاريخك». ولم أفهمْ ما قالتْه جدّتي آنئذٍ، غير أنّ موجةً من الخوفِ الطّفوليّ عبرتْني وقتَها، فرميتُ بينَ يديَها بسؤال أخير: «وَمَنْ يكون أبي إذًا؟». «سأقول لكَ عندما تكبر».

(٣)

هل يَبِيعُون النّساء؟!

ستقول لي جدّتي مَنْ أبي حينما أكبر، ولكنّني لم أكبر. تأتي بكعبٍ من تلك الكعوب ذات الألوان المُتباينة على الرّفوف الخشبيّة القديمة، فتقرأ:

والخَيْـلُ تَعْـرِفُ مِـنْ جَذِيمَـةَ أنّهَا
تَعْــدُو بِــكُلّ سَــمَيْدَعٍ بُهْلُــولِ

فأقرأ خلفَها، فإذا مضتْ ساعةٌ على ذلك، أخذتْني من يدي وأنا لم أجتزِ السّادسة من عمري إلى خَلاءٍ من الكوفة، في صحراءَ لا يُرى فيها إنس، فتهتفُ بكلماتٍ تامّات، فيأتيها (مُرّة)، ولم أكنْ أعرفُ اسمه، لكنّني كنتُ أسمعُ صوتَه الّذي يُشبِه صوتَ الرّعدِ يهتفُ: «جاءَكِ مُرّة، لبّيكِ يا أُمّاه». فتسأل والرّيحُ تُبعثر صوتَها في سَمُوم الظِّلال: «بَحَقِّ أبيه الّذي تعرفه عَلِّمْه». وكانتْ لمُرّة خيلٌ بَلقاء، يُردِفني خلفَه، وتسبحُ بنا وهو يتغنّى بأشعارٍ كان يقول إنّها من أشعار الجِنّ، وكنتُ أحفظُ كلّ ما يتلوه على مسامِعي. فإذا مضتْ ساعةٌ يُعرّفني فيها أماكنَ لم أكنْ لأعرفَها، ومواضع لم تكنْ خيلٌ لِتَخُبَّ فوقَها لولاه، حتّى يعودَ إلى جَدّتي الّتي لم تُبارِح مكانها، وقد غزلتِ الشّمسُ فوقَ رأسِها شالَها، حتّى إذا سقطتْ في حِضْنها حلّ اللّيل، فلا يُرى إلاّ نَقعُ الخيل المُثار في المساء، فتقفُ على

قدَمَيها فَرِحةً بعدَ أنْ داخَلَها الخوفُ من أنّني لن أعود، وتهتف بمُرّة: «لن تخطفه، لقد أخذتُ منكَ الأمان»، فيردّ: «إنّه ذكيّ، هذا العقل لن يهدَأ، إنّ في رأسِه واحِدًا منّا، إذا نظرَ إلى السّماء أرعدتْ». «عِدْني إنّكَ لن تخطفه». «هو مخطوفٌ على أيّة حال».

وتعودُ بي جَدّتي إلى البيت: «متى ستُصبح فارِسًا؟». وأهزّ رأسي؛ ليس لديّ ما أقول. ثُمّ تُهيِّئ لي العَشاء، فنجلسُ في فُسحةٍ بين الغرفتين نأكل: «إنّ طعمَه مُرّ». «لن تكونَ حياتُكَ كذلك إذا أردت». «وماذا أريد؟». «ستعرف، لن يعرفَ غيرُ المرء ما يُريدُه من نفسِه». «أنا لا أفهمُكِ تمامًا يا جَدّتي». وتمسحُ دمعةً صافِيةً على خَدّها، ثُمّ تقوم إلى الغرفة الأخرى، وتناديني وأنا لا أزالُ أمسحُ بعضَ الطّعام عن فمي: «حان وقتُ الدّرْس». وألحقُ بها، فتجلسُ إلى الكرسيّ الّذي يُشبِه كُرسيّ الإمام في المدرسة، وفي يدَيها كِتاب، ثُمّ تبدأ تقرأ عَلَيّ، كانتْ تقرأ عليَّ كلامًا يسيلُ في دمي، ويجري مع عروقي، قالتْ إنّه الشِّعر، وإنّ الفتى لا يكونُ فارِسًا إلاّ إذا كان شاعِرًا: «أولئك الّذين لا يصولون بالكلمة كما يصولون بالسّيف، تبقى فروسيّتهم ناقِصة». وتتشابكُ الكلمة مع السّيف في عقلي، فإذا ارتفعَ قُرصُ الشّمس حتّى كادَ طرفُ النّافذة العلويّ أنْ يشطره، أخذَتْني من يدي إلى السّوق: «هَيّا يا أحمد، لي حاجةٌ في السّوق».

كانت السّوق تعجّ بالّذين يحملون الدّلاء على أعتاقهم، أو أولئك الّذين يحملونها على أبعِرةٍ غادَين رائِحين، وكان بعضُهم يركب تلك الأبعرة ويصيح: «ثلاث دِلاء بثلاث دراهم تصل إلى البيت»، وكانتْ قَطَرات الماء الّتي تتساقطُ من أفواهها تلمع على أشعّة الشّمس اللاهِبة،

فتندفع الأفواه العطشى إلى الشِّراء. قلتُ لجدّتي وأنا أشيرُ إلى سَقّاء رفيع السّاقَين، ضامر البطن، عاري الأوراك، يتنافر شَعر صَدرِه كغولة، ويلبس عِمامةً متّسخة مُتربة قد تشقّقتْ أطرافُها: «ذلك أبي؟». «إنّه ليسَ أباكَ، قلتُ لكَ هذا غيرَ مرّة». «إنّه يُشبِهه». «أبوكَ لا يُشبِهه أحد!».

ونمضي في السُّوق. فإذا عبرْنا النّحّاسين وقَرْع قدورهم، وصلْنا إلى زُقاقٍ تصطفُّ على جانبَيه دَكاكينُ النّسّاجين، كانوا ينسِجون على الأنوال الضّخمة بُسُطًا زاهِية الألوان، يقف المُشتغِلون خلفَها، وآخرون يجلسون بينَ يدَيها، وكنتُ أرى السّقائين في كلّ مكان، ثُمّ لمّا انتهى الزُّقاقُ رأيتُ على طَرَفِه دارَ وِراقة، فاستمهلتُ جَدّتي في سَيْرِها، إذ خطفَتْ لُبّي كُعُوب الجِلد الدّاكنة الّتي تستقرّ على الأرفف الخشبيّة في صدر الدّار، ورأيتُ اثنَين في بسطتها يُفاوِضون صاحبها في كتابٍ يُقلّبانه بين أيديهم. «بكم هذا الكتاب؟». «بسبع دنانير». «إنّ سيّدي لم يُعطِني أكثر من خمسة». «إنّه الجمهرة لابن دُريد». «لا أعرفُ ما تعني». «إنّ كتابًا كهذا أحسنُ من عروسٍ أيّها الجاهل». ونمضي. فنصل بعدَ الزُّقاق إلى ساحةٍ كبيرةٍ تقفُ فيها نِساءٌ تنكشفُ ثيابهنّ عن أجسادٍ بَضّة، كان هناك عددٌ كبيرٌ منهنّ، يلبسْن ثيابًا سوداء، وأخريات ثيابًا مُلَوّنة، وهُنّ يَمِسْنَ بدلال.

قَدَّم أحدُهم جاريةً لم تتجاوز السّادسة عشرة من عمرها، بيضاء، مُستديرة الوجه، دَعْجاء العينَين، وكانتْ تنظُرُ إلى الشّارِين وهي تبتسم، تلفّ جذعها المشوق بملاءةٍ من وَشْيٍ مرقوم، تكشفُ من جسدها أكثرَ مِمّا تُخفِي، وكانتْ لعساء الشّفتَين، نافرة النَّهدَين: «المُهَفهَفَة، هذا

هو اسمُها، إنّها روميّة...» ويتوقّف قليلاً وهو يضحك، قبلَ أنْ يُتِمّ: «تحفظُ ألفَ بيتٍ من الشِّعر، لقد تعبتُ في تعليمها، وصوتُها فيه السِّحر الحَلال، مَنْ يشتريها بألفِ دينارٍ فقط». يُشير أحدُ الأثرياء الّذي لم ينزل عن صَهوةِ جوادِه إلى خادِمه، يتقدّم الخادم: «يدفعُ سيّدي لكَ فيها خمسمئة دينار»، يُضيّق البائع عينَيه: «خمسمئة دينار، هذا لا يُساوي ثمن ما دفَعْتُه للمُعلِّمين الّذين علّموها الشّعر، والغِناء، ورَقَّقوا صوتَها، وأنا علَّمْتُها الظّرافة، امضِ من هنا، يبدو أنَّ سيّدكَ لا يُقدِّر هذه الجوهرة». يعودُ الغلامُ إلى سيّده، يُشير إليه السّيّد قبل أنْ يبلغه بأصابع يده الثّلاث، يعود الغلام: «يدفع لكَ ثمانمئة دينار». «الله من فوق قال: (ولا تبخسوا النّاسَ أشياءَهم)، منذُ سنتَين وأنا أسهر على تعليمها، إذا لم تدفع الألف، فاغربْ عن وجهي». يُزيحه النّخّاس بيدَيه: «أريدُ أنْ أرى شارِيًا يعرفُ قيمة هذه المكنونة»، يتابع: «الألف قليلٌ على هذا الدّلال، حَوْراء رُوميّة، تعرفُ ذلك من كَفَلِها، ولن تشعر بالملل معها، إنّها تغنّي أكثر من عشرةِ أعاريض. غَنّ أيّتها السّاحرة». تنتحنح المُهَفهفة، قبل أنْ ينبثق صوتُها من حنجرةٍ عميقة:

إنّي بُليتُ بظبيٍ مِن الظِّباء رَشِيْقِ

رأيتُهُ يتَثَنّى بقرب دار الرّقيق

ينظر الغلام في هذه اللّحظة إلى سيّده الّذي يهزّ رأسَه، فيرجع إلى النّخّاس: «قد قَبِل سيّدي». «هي حَلال عليه، لن يخسر في الألف شيئًا، سيعرفُ ذلك سريعًا».

كانتْ سوقًا كبيرة، رأيتُ فيها الجواري يقفْن على صُعُدٍ خشبيّة، والنّخاسون يقلّبونهنّ بعصيّهم ويديرونهنّ أمام أعين الشّارين كما تُدار الكُؤوس البلّوريّة: «إنّها شركسيّة، اسمُها نُظُم، لثغتُها وحدها تساوي مئة دينار». «هيلانة لحنُ عودٍ ما نَبا، إلى مثلها القلبُ صَبا، إنّها حبشيّة لمن أرادَ أنْ يجدَ الحرارة في البرد، واللّهو في الجدّ». «إنّها جرجيّة، تُدفِئ الضّجيع وتُشبع الرّضيع، لها أيطلا ظَبي سريع، وصوت من الجَنّة بديع... هي بألفَين فحسب، أينَ أنتمْ أيّها السّادة، أين مَنْ قالوا إنّهم وزراء هذه الدّولة، هذه الّتي تليقُ بكم». واقتربتُ من جدّتي الّتي كانتْ تُساوِمُ النّسّاجَ في بِساطٍ وهي غافلةٌ عنّي، شددتُ يدَها، فنظرتْ إليّ مُتسائِلة، فلم أستطعْ أن أقول شيئًا، ورأيتُ شفتَيها كأنّهما تنطقان، غير أنّ أصواتَ النّخّاسين غَطّتْ على صوتِها. «إنّها أملحُ الجواري وجهًا، وأهيفهنّ قَدًّا، وأعذبهنّ صوتًا، بستّمئة من يشتري؟». «هذه الملعونة (عُرَيب)، إنّها أحسنُ من يلعب النّرد والشّطرنج، سمراء غير أنّ لها كشحًا هضيمًا، وكفلاً عظيمًا، وصوتًا رخيمًا، ولا تعدم نديمًا، إذا قامتْ ترجرجتْ، وإذا مشتْ تلفّتَت، وإذا رقصتْ تلّوتْ تلوّي الأفعى في حان خَمّار، بألفٍ ومئتين». وشددتُ هذه المرّة يدَ جَدّتي بقُوّة، واستدارتْ بجسمها نحوي، ونظرتْ في عينَيّ تستنطقني، فتساءلتُ مستنكِرًا: «هل يبيعون النّساء في هذه السُّوق يا جدّتي؟». «إنّهم يبيعون كلّ شيءٍ هنا يا بُنيّ». «كيفَ يُمكن أنْ يُبَعْنَ هكذا كأنّهنّ سقطُ المتاع؟!». «اصبرْ قليلاً يا بنيّ، هؤلاء الجواري سيُصبحْنَ ملكاتِ هذه البِلاد الواسعة، سيعزلْن الولاة، ويُعَيِّنَّ القادة، وستغدو المواكب إلى مخادعهنّ وتروح!».